كن عونًا لي يا أبي

دالِيا رأفت

obeikan.com

كن عونًا لي يا أبي

تلقى أبي الخبر بحزن لكني لم أستطع منع نفسى من إظهار انفعال السعادة حين أخبرتني أمي بنبأ وفاة عمي، أعلنت رغبتي في حضور مراسم العزاء برفقة أبي، رفضت أمي خوفًا من تحمل عناء سفرتين طويلتين متتاليتين فقد كنت قادمة منذ يومين فقط من إمتحاناتي في السنة النهائية بجامعتي بأندونسيا، أما أبي فلم يمانع اصطحابي وكأنه يريد التقرب لي بعد فترة جفاء استمرت أربعة سنوات اقتصرت علاقتنا على الأحاديث العابرة والكلمات المقتضبة، فقد كنت دائمة التهرب من أي مناسبة تجمعنا، في الحقيقة كنت أُعاقبه بطريقتي على قرارات اتخذها بشأني أضرت بقلبي وسعادتي.

أكد أبي حجز الطائرة من الكويت تلك البلد التي وُلدت وعشت فيها طوال سنوات عمري الإثنين وعشرون، لم يكن أبي يحصل على إجازات إلا مرة واحدة كل عام نُقيم فيها بين القاهره في بيتنا هناك وأقارب أمي والقرية الصغيرة وبيت عائلة أبي فيها، أما عن أسعد أيامي هي التي كنت أقضيها في هذه البلدة التي يدعونها عزبة أنعم بالطبيعة، الجمال، الهدوء والحب.

اضطررت لإرتداء ملابس سوداء، لكني ارتديت غطاء رأس مزرقش بألوان مختلفة قاتمة، جهزت حقيبة صغيرة لبعض حاجاتي الدقيقة وإحساسي بالخفة يجعلني كفراشة تطير وأنا أُحضر لهذه الرحلة التى طال انتظارها..ابتسمت لي المُضيفة، ابتسم لي الركاب اللذين التقت عيونهم بي لم أكن أعرف بدقه هل هم يبتسمون لي حقًا أم أنا توهمت أن كل شيء يضحك لأنني سألتقي اليوم بمن أحب.

أبي بجانبي لم ألحظه، أو أهتم بما يدور داخله، فأنا مازلت ناقمة على ما فعله بي، أردت الاستسلام لنوم عميق لكنه أبي أن يأتي، هكذا حالي عندما تغمرني السعادة لا أرى النوم مطلقًا،كل ما أستطيع عمله إستعادة الماضي وقصصه المتناثرة في أركان الذاكرة، تلك القصص التي حييت بذكراها طوال أربعة سنوات مضت.

الأم: ها قد وصلنا العزبة يا رؤى، انطلقي مع أولاد عمك وعمتك على أن لاتنسي الدعاء من أجل نتيجة الثانوية العامة، أين أبي حبيبي؟

مع عمك بالداخل.

سأذهب إذن عند سلوى لأسلم عليها.

أهلًا بابنة خالي الجميلة الأنيقة الرقيقة، أنا كل هذا يا سلوى؟!.. أهلا بكِ كيف حالك وعمتي وجميعكم؟؟

لو أن أبي وأمي يوافقان على أن أشتري هاتفًا كالذي معكِ لكنت اتصلت بك لأطمئن عليك بدلًا من الإنتظار سنة كاملة لرؤيتك أين الباقين؟؟

تقصدين إخوتي أم خالد؟

جميعهم.

أعرفك تتساءلين عنه، ذهب لمعرفة نتيجة البكالوريوس بالتوفيق والنجاح يا رب.

ندخل لنسلم على عمك وزوجته والآخرين؟

تدور السنة ونحضر للأجازة ولا أشتاق لعمي أبدًا جاف الطباع غليظ

الكلمات، **لن تجديه كذلك اليوم**، لماذا؟

لأنه ربما حزين لوفاة زوجته

زوجة عمي ماتت!!! لم يُخبرني أحد متى؟ كيف؟ كان الله في عون خالد

لا ليست أم خالد.. إنها زوجته الأولى، سيدة أخرى لكنه تركها منذ زمن طويل لأنها رحمها الله كانت تلد بناتًا فقط.

وطوال هذه السنوات لا أعرف هذه المعلومة؟!

ربما لم تأت مناسبة ولأن هذا حدث قبل أن نولد وبنات عمك الآن متزوجات ونزورهم بين الحين والحين.

وهل بنات عمي هؤلاء على علاقه جيدة بأبيهم؟

نعم..

رغم مافعله؟!

هنا يارؤى هذه الأمور عادية..

ها قد وصل خالد أترككما معًا لترحبا ببعضكما..

أهلًا رؤى عندما أراكِ أتعجب كيف صبرت سنة كاملة لا أعرف عنكِ شيئًا.

كتبت لك رسائل كثيرة لم أُرسلها خوفًا من عمي.

لماذا يغضب؟

لأنه لا يعرف ما بيننا.

أظن سيُسعده أن نتزوج.

obeikan.com

أكيد بالطبع.

أخبرني عن تقديرك؟؟ لا تقل عادي..

لا.. جيد جدًا..

أصبحت إذًا مُهندسًا زراعيًا بتقدير جيد جدًا.. تعلم سعادتي الآن أكبر من سعادتي بنتيجتي مهما ستكون الآن تستطيع أن تحدث والدك ووالدي في خطبتنا نعم لن تمر الأجازة إلا ونحن خطيبًا وخطيبته.

وأنا سألتحق بجامعة إقليمية قريبة وبهذا تقترب المسافات البعيدة ونقترب أكثر..

تخطيط هائل يا حبيبتي..

تعالي لأريكي رسائلي ونتجول في الحقل والمزرعة فقد افتقدتك طوال الشهور الماضية.

لابد أن تمتلك جوالًا حتى تستطيع الإتصال بي في أي وقت..

بالتأكيد..

من فضلكم ربط الأحزمة هكذا أيقظتني المضيفة من رحلتي الداخلية وأوقفت إجترار ذكرياتي..

ضم أبي يده ليدي بشدة عندما استقلينا إحدى السيارات بدون أمتعة تُذكر.. بدون كلمات نتبادلها.. تبدو علامات الحزن على وجه أبي هو في النهاية أخيه أما أنا فكل ما أفكر به هو تخلصي من نصف العقبات التي تقف حائلًا بين خالد وبيني ومواجهة نصف المشكلة أهون من مواجهتها كلها.

obeikan.com

أنا وخالد سنقف في وجه أبي، نؤكد أن حبنا أقوى من حدود الزمان فقد مرت أربعة سنوات وبدون اتصال بعد أن قُطع كل اتصال بيننا بالقوة ومازال القلب ينبض بالعشق والحنين.. وحدود المكان فقد سافرت فوق سفري وأُجبرت على غربة فوق غربتي بأن درست في جامعة بعيدة بدلًا من مصر حتى أنسى.. وقد إبتعدت ولم أنسى سيتأكد أبي أن ما بيننا قادر على تخطي العقبات و الصعاب.

لا أستطيع مواجهة سيل الذكريات المُندفع داخل عقلي عشت حزينة على إثرها سنوات، ربما أبي بجانبي يواجه نفس هذا السيل داخل ذاكرته لابد أنه يشعر بالندم تجاهي.

مُستحيل أوافق على هذه الزيجة

لماذا.. ما العيب في خالد؟

تُريدين الحياة في تلك العزبة..لاتعرفين ولاتفهمين شيئًا عن طباع الناس، مازلتِ صغيرة لا تُدركي المعاني الأخرى للأمور.

بل أُدرك وأفهم وأستطيع العيش هنا-كرهت مدينتك التي أحيا فيها غريبة مُختلفة عمن حولي وحيدة مُضطرة أن أتكلم، أتعلم على غير طبيعتي حتي لا أكون منبوذة أما هنا فأنا على حُريتي دائمًا أقدر على التكيف في الظروف التي تُزعجك.

لا أقصد ظروف الحياة وفقرها، الرفاهية مهما وُجدت لن تُقارن بمعيشتك التي تعودتيها إنما أقصد الأفكار والعادات الجامدة القاسية.

خسارتي في تفكيرك وعقلك الذي كنت أظنه يُنصفني ويتحدى من أجلي لحياتي ضد أخيك..

أنا لا أخافه ولن أترك ما قاله يمر لقد اتهمني أنني أريد اختطاف ابنه الوحيد..

نعم، لقد اتهمنا عمي بأننا نتفق على سلبه ولده كما اتهم أمي بأنها اختطفت أبي من عائلته وقريته وأخرجته من بلده كلها لتستحوذ عليه كُلية وأنني أُخطط لنفس العمل، كان ثائرًا علينا كبُركان يقذف جمرة في كل مكان حوله، لكن هذا لم يمنع مابين ابنه وبيني فقد قابلني قبل أن نقطع زيارتنا بشكل مُفاجئ نتيجة ما تم وأكد لي أنه لن يتخلى عن حُبنا وعاهدني على الصبر حتى يستطيع إقناع والده بهدوء وأُكمل دراستي الجامعية وإن أصر أبوينا على رأيهما سنُفاجئهم بزواجنا دون رغبتهم..

وها هو عمي يُفارق حياتنا للأبد ليُصبح أمامنا جبهة واحدة نُقاتل فيها بدلًا من جبهتين كما أنني تخرجت في الجامعة وأصبحت مسئولة عن نفسي وفعل ما أراه مُناسبًا لمُستقبلي خصوصًا وأنا أرى شيئًا تغير في مصر، شيء غير طبيعي يُنبئ بحدث كبير ربما ثورة كما سمعنا.. ليتها تكون ثورة على تحكُم الأهل وفرض آرائهم.. ويترك لكل فرد الحرية في اختيار ما يُريد، و مايراه مُناسبًا لماذا نضطر لأن نعيش حياة من اختيار غيرنا.

السيارة التي تولت توصيلنا من المطار للقرية تقف على حدود كل محافظة للتفتيش، اعترى التوتر ملامح أبي رُبما أراد رؤية أخيه لآخر مره بعد مقاطعة أربعة سنوات أو تزيد، ربما اعتبرني السبب في تلك القطيعة.. لكنه لم يقُل شيئًا، ولم ينظُر إليَّ بعتاب.

كدنا نصل للقرية الكبيرة التي تتبعها العزبة وجهتنا، كاد قلبي يفر من مكانه، وتُسرع عيني تسبقني هُناك، أكاد أُجزم أني لم أغبْ سوى بضعة أيام، نسيت كل

تفاصيل السنوات الأربع الماضية.. فقط أتذكر ما قبلها وسقطت هي في هوة عميقه وتلاشت من كل حواسي.. أما العزبة فقد تغير مدخلها وانتشرت كائنات غريبه فيها تُسمى توك توك.. ارتفعت البيوت عن ذي قبل، واتسعت العزبة باندماجها مع عزب أخرى مُكونة وحدة مُتلاحمة جعلتها تبدو أكبر وأفضل..

ها هو مشهد العزاء يتضح من بعيد.. الرجال يذهبون وحدهم دون النساء بصُحبة التابوت ينهُون كافة المراسم ويتبعهم النساء بعد عدة ساعات إن أردن هكذا العادات هنا.. انطلق أبي مُسرعًا كأنه نسى وجودي.. رأيت كل شيء هادئ اقتربت ببطئ، دلفت للداخل رأيت زوجة عمي مُلتصقًا بها امرأتين تخيلت أنهن بنات عمي الذي تخلى عنهن.. قدمت لهم جميعًا عزائي لم تكن إحداهن مُنهارة ولا يُسمع صوت بكاء.. إنما كلمات مُتناثرة هنا وهناك تخرج من أفواه السيدات.. حتى عمتي كانت بلا انفعال حتى احتضنتني وانهالت دموعها ربما تذكرت أخر مرة كنا فيها هنا وكيف خرجنا. سألتها عن المرأتين وإن كان تخميني صائب أم لا..

قالت: التي على اليمين زوجة خالد.

قلت: من؟!

قالت: حسبتك تعرفين أنه تزوج منذ ثلاثة سنوات وتعثرت زوجته في الإنجاب فأصر أبيه على تزويجه من الثانية، هذه التي على اليسار وابنها بين يديها واستطردت كأنها تتحدث عن شخص آخر غير خالد وبحرية كاملة كأنها لا تتحدث إليَّ قائلة أن الأولى أكرمها الله بحمل حديث.

ساعتها اندفعت دموعي حتى أغرقت وجهي وأسرعت السيدتين وعمتي

وبعض النساء لمواساتي معتقدين أني حزينة من أجل عمي..

كل ما فكرت به هو أبي كم أخطأت في حقه وكم تحملني..

جفت دموعي ولم تنتهي، عند سماع أصوات الرجال قادمون من تشييع المتوفى.. رأيت خالدًا يقف على أعتاب الحجرة المُزدحمه بالسيدات وما أن رأته زوجتاه حتى همت كل واحدة بالسير نحوه فأوقفهم بنظرة وأشار لي، مؤكد علم بوجودي من أبي..

هل علم ما كنت أنويه؟؟

قلت: البقاء لله وسكت.

قال: أنه كان مُجبرًا على أشياء كثيرة لكن حان وقت إصلاحها لأنها أفسدت حياته

رأيته غريبًا، أو مجنونًا هل كنت صغيرة إلى هذا الحد فلم أُميز بين الجنون والحكمة كنت لأقع في بئر مظلم لولا يد أبي أنقذتني.. هرعت إليه ألقيت نفسي بين ذراعيه أردت استعطافه ليُسامحني، ويكن عونًا لي مدى حياتي أُعاهده ألا أرتاب من حبه.. رغم أنني لم أقل شيئًا، إلا أنني مُتأكدة من فهمه لي.. لم أسأله

إن كان علم شيئًا عن خالد لذلك وافق بسهولة على قدومي.. لم أهتم إلا بأني عُدت وأبي من تلك الرحله أبًا وابنته من جديد...

نعمة بحمد الله

obeikan.com